المحاضرة السابعة: رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي والمغربي

مرَّ أكثر من خمسة قرون على إنطفاء شمعة الأندلس الزاهية، وانقضاء آخر دول الإسلام: دولة بني الأحمر أو بني نصر في غرناطة، ولكن إشعاع الأندلس بحضارتها وثقافتها، وما تركه العلماء والفقهاء والأدباء من آثار مسطرة خالدة، هو إشعاع باق، يرفد تاريخ الآداب والعلوم والفنون... حيث يسجل "رثاء المدن في الأندلس" كفاح أمة وجهاد شعب في فترة زمنية تمتد لأكثر من ثمانية قرون، تؤرخ لعبور العرب المسلمين مضيق جبل طارق، ومن ثم خروجهم من آخر مملكة لهم في غرناطة، وتعبر عن صدق انتماء الشاعر الأندلسي الذي رأي مدينة تؤخذ، وجزيرية تسلب، ومساجدهُ تُتَصَّر فما كان منه إلا أن نظم أجمل الأشعار والرثائيات التي تُصور ضياع الوطن، وغروب شمس طالما أشرقت عليهم.

1- تطور رثاء المكان (المدن) في الشعر العربي وعوامل شيوعه في بلاد الأندلس والمغرب:

حفل الشعر العربي منذ عهده الأول بعديد القصائد إلى أظهر فيها الشعراء بكائهم على مكان ورثائهم له، فمنذ العصر الجاهلي والمكان يتبوأ مكانته في المنظومة الشعرية العربية، حتى تجده تحوّل إلى طقس فنيّ يؤديه الشعراء في مطالع قصائدهم مع المقدمة الطللية التي تحتل موقعا مهما في بناء القصيدة العربية، ولعل بكاء الجاهلي على الربع الدارس والطلل الراحل هو لون من هذه العاطفة المعبرة عن المكان وخرابه، فالمتصفح لديوان العرب في **الجاهلية** يقف على عديد النماذج التي يبكي فيها خراب المكان وإنمحائه بفعل عوادي الزمن، بل لا يتوقف الشعراء الجاهليون على المقدمة الطللية فحسب، بل وقفوا عند بعض الأماكن بعينها متحسرين على ما أحدثته يد الدهر من تدمير وخراب.

وما دمنا بصدد إظهار الإرهاصات الأولى لهذا الغرض الشعري المستحدث لا يفوتنا الوقوف على الشاعر **عدي بن زيد والأعشى** في رثائهم للممالك والملوك والعز

الزائل، فهذا **الأعشى** يقف متذكرا مصير مساكن ثمود التي أصبحت بيوتا للثعالب، مرتعا للجن تعزف فيها بعدما كانت عامرة بأهلها [1]:

إنَّ القـــرى يومـــا ستهـــــ ... لـــك قبـــل حـــين عـــذابها

وتصـــــير بعـــد عَمـــارةٍ ... يَوْمَـــــأ لأمـــــر خرابهـــــا

أولم تـــري حجْـــرًا وأنـــــ ... ت حكيمـــــة ولِمـــــا بهـــــا

إن الثعالــــــب بالضُّـــــحى ... يلعــــــبن فـــــي أبوابهـــــا

والجـــنُ تعـــزفُ حَولهـــا ... كـــالحُبْش فـــي محرابهـــا

بل لا يزال الأعشى يذكرنا بالأمم السابقة وأخذ العبر من ملوكها وممالكها الذاهبة، فهذا قصر ريمان الذي شهد حضارة اليمن ثم استولى عليه الفرس والحبش فهد موُهُ، يقول **الأعشى** كما هي[2]:

يَا مَنْ يَرَى ريمانَ أمْـســـــ ... ـــى خاويـــاً خربـــاً كعابُـــهْ

أمْســـــى الثّعَالِـــبُ أهْلَـــهُ ... بَعْـــدَ الّـــذِينَ همـــو مَآبُـــهْ

بكرتْ عليهِ الفـــرسُ بعـــــ ... ـــدَالحبشِ حتى هـــدّ بابـــهْ

فَتَـــــرَاهُ مَهْـــــدُومَ الأعَـــا ... لي، ومرَّ مســـحول ترابـــهْ

ولقـــــدْ أراهُ بغِبطـــــــةٍ ... في العَيْشِ مُخْضَرّاً جِنَابُـــهْ

ولكن يبقى رثاء المدن من الأغراض الشعرية **المستحدثة.** والذي تضمَّن آثار التقلبات السياسية التي اجتاحت عصور الأندلس المتباينة، وان وجدت آثاره وبداياته عند الشعراء الجاهلين[3]، ذلك أنَّ الجاهلي وإن أكسب المكان بُعدا قدسيا في شعره بجعله طقسا فنيا يلازم افتتاحيات قصائده، وكذا إن استحوذ هذا الفن مساحة قاموسه الرثائي لاتصاله

بالأمم المجاورة وتأثره بزوال الحضارات والممالك، فهو «لم تكن له مدن يبكي عليها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلبا للمرعى، وسعيا وراء العيش، وإذا ألم ببعض مدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام المسافر المتكسب الذي لا يشغله ما يراه في الحضر عما خَلَّفهُ في البادية من نوق وخيام وأصحاب».

ولعل الأمر الذي يلفت الانتباه في شعر العصر **الأموي** هو اشتراك الشاعر الأموي مع الشاعر الجاهلي في ربط الطلل بالمرثاة، فصلة القرابة بين الطلل والمرثاة هو تعبيرهما عن الحزن الناتج عن تفرق الجماعة أو فقدان الحبيب، ولنا مع هذه المقدمات الطللية ما يؤكد ارتباطها بالمرثية، ومن هذه المقدمات قول جرير[1]:

وللمنازل لا يُجْــبنَ حزينــا أصممن أم قَدُمَ المدى فبلينا

ولقد برز رثاء المدن بشكل جلي في الشعر العربي المشرقي عندما حل الخراب بحاضرة الدولة العباسية بغداد، وبرز الشاعر **أبو يعقوب الخريمي** مصورا نكبتها وما حلّ بها إثر الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون ابني هارون الرشيد، ومما قاله الخزيمي في ذلك[2]:

يا بؤسُ بغــداد دار مملكــةٍ دارت علــى أهلهــا دوائرهــا
أمهلهــا اللّــه ثــم عاقبهــا لمــا أحاطــت بهــا كبائرهــا
رَقّ بها الدّين واستخفّ بِــذ ي الفضل وعزَّ الرجال فاجِرُها

وكذلك رثى **ابن الرومي** مدينة البصرة بعدما تعرضت لثورة "الزنج" مصورا ما حلَّ بها وبأهلها من دمار، ووقف **البحتري** في سينيته المشهورة على إيوان كسرى. ولكن هذا اللون من الرثاء لم يزدهر في المشرق ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين أراد الصليبيون طرد المسلمين وإخراجهم من

الأندلس، فقد كان الشعراء «يرون هزل ملوكهم وجدًّا أعدائهم، ويرون ديارهم تُنتزع منهم مدينة تِلْوَ مدينة، ويرون ملكهم الذي أقامه الآباء والأجداد حصناً للإسلام، ومجداً للعروبة تتداعى أركانه أمام أعينهم فيستولي عليهم الذهول، ثم لا يملكون أن يرثوه ويتفجَّعوا عليه بشعر يقطر أسى مُمِضًّا ودموعا حارة!.... حتى صار رثاء المدن والممالك، بسبب ذلك فنا شعريا قائما بذاته في أدبهم».[1]

فلو بحثنا في المراثي الحقيقية للمكان، والتي تحدد لنفسها جملة من الخصائص التي ترقى بها إلى الغرض الشعري القائم بذاته فإننا نجد ذلك في الشعر **الأندلسي والمغربي** وفي ذلك يقول أحد الباحثين: «لم تُبْكَ مدن قطر من أقطار العالم الإسلامي كما بكيت مدن الأندلس وبلداها»[2]. فالمشارقة **لم يتوسعوا** في رثاء المدن والممالك تَوَسُّع الأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم كما ظهر في الأدب الأندلسي فناً قائما بذاته، وبذلك يمكن القول بأنَ شيوع هذا الفن وإنتشاره كان في الجهة الغربية من بلاد المسلمين، يقول الطاهر أحمد مكي عن رثاء المدن: «فن أندلسي وجدت دوافعه في المشرق والمغرب على السواء، وخصّ **الأندلس** ببعضها، وتفّرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها فكان له معها قصيد رائع أحيانا، ودون الجيد أحيانا أخرى تبعاً لثقافة الشاعر وطاقته النفسية وحظه من تجارب عصره عمقا وإتساعا»[3]. فالأندلسيون استطاعوا وأن يجعلوا هذا الغرض اتجاهاً قائماً بنفسه، وبابا من أبواب الشعر -الرثاء السياسي- أبدعوا فيه القول، وأجادوا فيه الصياغة.

وللبيئة الأندلسية –أيضا- دور كبير في شيوع رثاء المدن، وفي ارتباط الأندلسي في بيئته الخلابة التي تمتاز بجمال الطبيعة، والظلال الوارفة، والينابيع المتدفقة والخُضرة الدائمة فلم يكن أمام الشاعر، وهو يراها تنأى عنه إلا أن تجود قريحته الشعرية بما يعكس

صدق إنتمائه إلى بلده وحبه لها، وما أصدق **الرصافي البلنسي**، وهو يعلل حبه لبلاده فيقول[1]:

بلادي التي ريشتْ قُويدمتي بهـــا فريخاً وآوَتني قَرارَتُها وكْـــرَا
مبادئُ لين العيشِ في رَيِّق الصِّبا أبى اللّهُ أن أنسى لها أبداً ذِكرَا

فأبيات الشاعر تقرّ، بل والتاريخ يقر بأن بلاد الأندلس كانت جنة الله على الأرض بما حوته من مظاهر طبيعية حفر عليها الإنسان مظاهر ثقافته، فتزاوج فيها الفعل الإنساني والجمال الطبيعي ليشكلا لوحة فنية رائعة صورها الشعراء في مختلف قصائدهم، غير أنّ مدة دول الطوائف (ومجالها القرن الخامس تقريبا)، كانت مدة قياسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية، فقد «إنفرط عقد الأندلس الموحدة التي ضمتها الدولة الأموية وصارت أندلسات كثيرة؛ وصار في كل بقعة دويلة صغيرة لا تقوى على التماسك ولا حماية نفسها:لا من دويلة أخرى أندلسية، ولا من دول الشمال المتربصة، والتي تنتهز الفرص لتنهش من جسم الأرض الأندلسية»[2]. أضف إلى ذلك أن مرحلة الترف والغنى التي عاشها ملوك الطوائف بدأت تفعل فعلتها، حيث ما إن دب الضعف والوهن واستحكم الداء في هذه النفس العليلة التي كانت في حالة غيبوبة مع انصراف أهلها إلى اللهو حتى أخذ الأعداء يزحفون على حواضر الأندلس الواحدة تلو الأخرى.

2- مضامين شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس:

لقد تعرضت الأندلس أثناء فترتي المرابطين والموحدين إلى سقوط مماليك ومدن، وما كان أمام الشاعر الأندلسي، وهو يرى مدنه تتهاوى سقوطاً إلا أن تجود قريحته بما يتطلبه الواجب – الوطني والديني-، فانبرى معبرا عن هذا التمزق الذي أصاب موطنه، وضاع معه دينه بقصائد في غاية الجمال لما تثيره في النفوس من إحساس بالحزن

والأسى لتهاوي حواضر الإسلام في بلاد الأندلس- وحتى بلاد المغرب- حيث يعدّ هذا اللون من الرثاء أكثر فنون الشعر قولا وصدقا وأصالة لوجود الدوافع النفسية وراء إنشاده.

وقد اختلف الدارسون في مفهوم رثاء المدن والممالك، ومنهم من فرّق بين **رثاء المدن** فأطلق هذا النوع من الرثاء على المدن التي سقطت في **يد الإسبان** واستلبت من يد المسلمين فبكاها الشعراء، وأُطلق الثاني على **دول ملوك الطوائف** التي سقطت بدخول المرابطين إلى الأندلس – على يد يوسف بن تاشفين- ، وما نظمه الشعراء من قصائد تأسف وتأسى على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك، كما طبع هذا اللون من الشعر بطابع سياسي، يقول غرسية غومس: «وقد أدركت طائفة من المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الأندلسي، وقد قيلت هذه المراثي في مناسبات زوال الدول مثل رائية ابن عبدون في زوال ملك بني الأفطس أصحاب بطليوس، أو بمناسبة ضياع بلد كبير من بلاد المسلمين»[1].

إذن لقد برز في الأندلس قسمان من الرثاء السياسي في القرن الخامس الهجري، لذا سنتناول بعض النماذج من القسمين لتقودنا إلى أهم المضامين والقضايا التي يكشف عنها هذا الفن من البكائيات.

أ- رثاء ملوك الطوائف وممالكهم التي سقطت على يد يوسف بن تاشفين (رثاء الممالك الزائلة):

ومن أشهر هذه الممالك والدويلات، دولة "**بني عباد**" في اشبيلية وقد رثاها ابن اللبانة، وابن حمديس، وابن عبد الصمد، ودولة "**الأفطس**" في بطليوس ورثاها ابن عبدون، ودولة "**بني صمادح**" في المرية ورثاها ابن الحاج.

ومن الشعراء الذين أجادوا في رثاء الدولة العبادية، وأحسنوا وصف الألم الذي نتج عن غياب المعتمد بن عباد وأسرته الشاعر "**ابن اللبانة**" يقول[1]**:**

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَــادِي عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَــاءِ عَبَّــادِ
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ
وكعبة كانت الآمــالُ تعمُرهــا فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا بــادِ

فهذه الأبيات من أصدق الشعر المعبر عن خوالج النفس البشرية، وقد عمّها الأسى، فأصبحت ترى كل شيء ألماً، فالغيث مثلا ما هو إلا مشاركة من السماء في نكبة بني عباد، فهؤلاء كجبال الأرض ثباتًا ورسوخًا، وهم محط الأنظار ومستقر الآمال، يأتي الناس إليهم من كل مكان كما يأتون إلى الكعبة حجاجا طائفين، ولكن تغير الأحوال جعل الجبال تُهَدُّ وتقتلع الأرض بمن عليها، وجعل الكعبة خالية من طُوّافها، فالحزن عند ابن اللبانة لم يقتصر على الإطار الفردي أو الإنساني بل شمل الكون بأسره.

ومن المراثي في رثاء بني الأفطس المرثية العبدونية التي نظمها الوزير الكاتب **ابن عبدون** يقول فيها:[2]

الدهر يفجع بعد العــين بــالأثر فما البكاء على الأشباح والصــوّر
أنهاك أنهاك لا أنها لك واحــدة عن نومةٍ بين نابِ الليث والظُّفُــر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة فالبِيض والسُّود مثل البيض والسمر
فلا يغَّرنْك من دنيــاك نومتهــا فما صناعة عينيها ســوى الســهر

فالشاعر في مرثيته التي أطلق عليها النقاد " البسَّامة" يسلّم كل ما جرى على هذه المعمورة للقدر، لذا يحذر من الركون إلى هذه الدار وإلى مهادنة الأيام؛ فإنها عدو في ثياب صديق والراكن إليها كالنائم بين أنياب الليث ومخالبه، ثم يعلّل ذلك التحذير والنهي البليغ بأن الدهر يحارب الإنسان في صورة مسالم، وأن البيض من لياليه مثل السيوف، والسمر مثل الرماح والكل حرب له، ثم يطلب الشاعر من سامعه أن لا يغتر بالدنيا، فتلك

قد تكون هدنة لأن الدنيا لا تعطي إلا لتمنع وما تهب إلا لتسترد، وتستمر هذه النبرة الحزينة الزاهدة على طول المرثية.

ب- رثاء المدن الأندلسية التي سقطت بيد الإسبان:

لقد استمرت صيحات الشعراء لتحرير الأندلس، فصوّروا التدمير والتخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية من خلال قصائدهم التي نظموها في مدينة بعينها كبربشتر، وطليطلة وبلنسية وقرطبة،[1] أو رثاء الجزيرة بشكل عام كنونية "الرندي"، وسينية "ابن الآبار" وقصائد أخرى، ولم يقتصر شعر رثاء المدن على زفرات الألم والتوجع فحسب، بل جاء مشتملا على معان أخرى كثيرة منها: مخاطبة الملوك واستنهاض هممهم، واستجاشة عواطف المسلمين، ومخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب العون منه، ووصف حال المسلمين عقب سقوط المدينة، وتضمين نقد لاذع للأوضاع السياسية المتردية.... فلم يكن الهدف من هذا اللون من الرثاء التوجع والبكاء فقط على ما ضاع من أرض المسلمين وإنما كان الهدف الرئيسي منه بث روح الحماسة وإثارة نخوة الجهاد لمنع الصليبية من ابتلاع ما تبقى من أقاليم الأندلس الإسلامية، ولذلك جاء ممزوجا في معظم الأحيان بالاستغفار و الاستصراخ، وهذا ما نلمسه في بعض النماذج التي بين أيدينا.

ويأتي صوت الشاعر **ابن العسال** شاهدا على المأساة التي حلت بمدينة **بربشتر**، ومن شعره قائلاً:

ولقد رمانا المشركونَ بأسـهُمٍ ... لم تخط لكن شأنُها الإصْـماءُ

هَتَكوا بخيلهم قُصور حريمِهـا ... لمْ يبْقَ لا جَبَلٌ ولا بطحـاءُ

---

[1]- رثاء قرطبة: ابن شهيد والسميسر الألبيري.

رثاء بلسنية: ابن خفاجة والوقشي.

رثاء بربشتر: ابن العسال.

رثاء طلليطة: الشاعر المجهول.

جاسوا خلال ديارِهم فلهم بهـــا في كُل يوم غـــارةٌ شـــعواءٌ
ماتت قلوب المسلمين بـــرعْبِهم فحماتنا في حـــربهم جُبنـــاءُ

يقيم الشاعر هنا موازنة غير متكافئة بين الطرفين يشكلان ثنائية دلالية، فالطرف الأول يتمثل بالأعداء الذين هتكوا حرمة "بربشتر" واحتلوا قصورها وانتشروا فيها، إذ لم يبق فيها جبل أو سهل إلا عاثوا فيه فساداً، لذا جاءت الأفعال الدالة على الحدث دلالة موحية بالقوة والتدمير، كما في قوله:"هتكوا، جاسوا". أما الطرف الثاني فيتمثل بالمسلمين الذين تقاعسوا عن حماية "بربشتر" وجبنوا أمام الأعداء، فقد ماتت قلوبهم، ودب الرعب فيهم، لذا جاء الفعل الدال على الحدث ذا دلالة موحية بالضعف كما يبدو في قوله"ماتت".

والشاعر حينما يبرز ثنائية الهزيمة والنصر، فهو لا يسعى إلى تصوير الوقائع والأحداث فحسب، وإنما يسعى إلى استنهاض الهمم وبعث روح الجهاد للدفاع عن بربشتر، وهو ما بدا في الأبيات اللاحقة، فقد عمد إلى اختيار المشاهد الإنسانية المؤثرة لإبراز وحشية المعتدين من جهة، و إذكاء الروح الجهادية من جهة أخرى قائلاً:

كم موضع غنموه لم يرحم بـــه طفل ولا شـــيخ ولا عـــذْراءُ
وكم رضيع فرقوا مـــن أمـــه فلـــه إليهـــا ضـــجةٌ وبغـــاءُ
ولرُبَّ مولـــود أبـــوه مُجَـــدَّلٌ فوق التراب وأمُّـــه البيـــداءُ
ومَصونةٍ في خدْرِها محجوبـــة قد أبرزوها ما لها اسْـــتخفاءُ
وعَزيز قوم صار في أيـــديهم فعليه بعد العـــزة اســـتخذاء

فهذه الأبيات تشكل لوحات إنسانية تفيض حزنا ولوعة، فالأطفال والشيوخ والعذارى لم يسلموا من بطش المعتدين، واختيار هذه الفئات دون غيرها يبعث على الكراهية، وينمي روح القتال، ولا يكتفي الشاعر بذكر الفئات المستضعفة التي وقعت ضحية المعتدين، بل يشرع بتوظيف عاطفتي الأبوة و الأمومة ليلهب مشاعر المتلقي، فصورة الطفل الرضيع الذي يبكي على أمه التي قتلت، وصورة الأب القتيل، وصورة المرأة المصونة التي هُتك سترها وأُبيحت حرمتها، وصورة السيد الشريف الذي اعتراه

الذل والهوان، كلها صور نفسية عميقة، تشكل العصب الوجداني للقصيدة، إذ تختزل انفعالات الشاعر الذي يسعى لإيصالها للمتلقي تحقيقا للمشاركة الوجدانية.

وإلى جانب المشاهد الإنسانية المثيرة للوجدان، يسعى الشاعر لتوظيف العاطفة الدينية قائلاً:

لولا ذُنوب المسلمين وإنَّهم ... ركبوا الكبائر ما لهن خفاءُ
ما كان ينصر للنصارى فارس ... أبدا عليهم فالذنوبُ الداءُ
فشرارها لا يَختفون بِشَرِهم ... وصلاحُ منتحلي الصلاح رياءُ

فالشاعر يرى أن سبب انتصار المشركين وهزيمة المسلمين يعود إلى بُعدِ المسلمين عن دينهم، وكثرة ذنوبهم، وفي هذه الرؤية تناص قرآني فهو يستلهم قوله تعالى: «إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[1]، وكأن الشاعر يوجه دعوة للمسلمين ليعودوا للتمسك بدينهم؛ لأن فيه خلاصهم ونصرهم.

ونحن إذن نتحدث عن رثاء المدن في الشعر الأندلسي والمغربي لا يفوتنا أن نقف عند رائعة **أبو البقاء الرندي** التي تُعد رثاء للأندلس بأكملها. بل يمكن اعتبارها عصارة فن رثاء المدن، والتي يفتتحها الشاعر بمقدمة حكيمة صادرة عن تراكم تجارب في الحياة، يعود معها الشاعر إلى تاريخ الحضارات وكيف تهاوت، قائلاً:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ ... فلا يغرُّك بطيبِ العيشِ إنسان
هي الأمور كما شاهدْتَهَا دولٌ ... من سرَّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ
وهذه الدَّار لا تبقى على أحدٍ ... و لا يدوم على حال لها شانُ
....
دهى الجزيرة أهر لا عزاء لهُ ... هوى له أحدٌ وانهدَّ ثهلانُ
أصابها العين في الإسلام فارتزأَتْ ... حتَّى خلتْ منه أقطار وبلدانُ
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جَيّانُ

[1]- سورة محمد، الآية:07.

وأيــن قرطبــة دار العلــوم فكــمْ من عالمٍ قد سماَ فيها لــهُ شــانُ

يهول **أبو البقاء الرندي** من الفاجعة التي حلت بأهل الأندلس، ويتحصر على مضاجع المسلمين في بلاد المشرق، لما حلَّ بإخوانهم غرب الجزيرة والتي يبدو أن جلّ مدنها قد تهاوت (بلنسية، مرسية، شاطبة، قرطبة)، فحال كل واحدة أسوأ من الأخرى، ولم يكن حظ الأولى أوفر من الثانية إلا في مجابهة مصائب الدهر التي تكالبت على جسد دولة الأندلس تنخر من كل جانب، تاركة فيه أثرا، تبدو صورته أوضح في المساجد التي كانت شاهدة على حلول الإسلام بها، فصارت رامزة للصليبية بعد أن تحولت إل كنائس، يقول **أبو البقاء الرندي**:

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نــواقيس و صُــلبانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامــدة حتَّى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

فالحرب إذا على الإسلام بالدرجة الأولى قبل أن تكون على الأرض، ذلك لأنها حرب صليبية هدفها إذلال الإسلام الذي تخلى عنه أهله أولاً، عندما انغمسوا في الملذات وهجروا المساجد منساقين وراء أهوائهم في غفلة من أمرهم، يقول أبو البقاء:

يا غافلاً وله في الدَّهر موعظــة إن كنتَ في سِنَةٍ فالدهر يقظانُ
وماشيًا ســرحا يلهيــه موطنُــهُ أبعدَ حمص تغرُّ المرءَ أوطــانُ
تلك المصيبة أنست مــا تقــدمَها وما لها مع طول الدهر نســيانُ

حيث يوجه بعد ذلك أبو البقاء نداء استغاثة لنصر أهل الأندلس ولرفع الذلِّ عن الإسلام والمسلمين مخاطبا في ذلك كل النفوس التي لها غيرة على الإسلام، قائلاً:

ماذا التقاطع في الإســلام بيــنكم وأنــتم يــا عبــاد الله إخــوانُ
ألا نفُــوسٌ أبَاتــه لهــا همَــمٌ أما على الخير أنصار وأعوانُ

يقف المتلقي لهذه الأبيات (النماذج) ولغيرها من القصائد التي نظمت في رثاء المدن على بروز **الجانب التصويري** فيها؛ لأنها تنقل رسالة حال بلاد المسلمين في المغرب والأندلس وما أصابها من نكبات متعاقبة ساهم فيها أهل البلاد بغفلتهم عن مصيرهم.

فقد عبر الشعراء في مختلف القصائد عن روح الفاجعة بمرارة وحزن وشعور عميق بفقد هذه الحواضر الإسلامية، بل عبروا عن استيائهم محذرين تارة، ومستنجدين بإخوانهم المسلمين تارة أخرى، بحيث "لم تسقط مدينة في يد مسيحي الشمال إلا وبكوها وتفجعوا عليها تفجعا حاراً، وهو تفجع كانوا يضمنونه استصراخا للمسلمين في مغارب الأرض ومشارقها لعلهم يستنقذون تلك المدن من براثن الإسبان ويعيدونها إلى حضيرة الإسلام"[1]، وعلى هذا نجد الشعراء يصدرون عن شعور صادق، وينظرون للفاجعة من منظور واقعي ومنطقي، يحسون بالألم والحسرة، فتراهم يتحدثون في قصائدهم عن القضايا التالية:

أولا: أسباب الكارثة التي أدت إلى زوال الممالك واندثارها.

ثانيا: آثار الفاجعة على المسلمين المادية والمعنوية، فأما المادية فتظهر في دور العبادة (المساجد) والتنكيل بالإنسان، وأما المعنوية فتظهر في الأذى النفسي الذي يبقى أثره باديا على الإنسان مع ما يلحقه من مهانة وإذلال.

ثالثا: الحنين إلى الأيام الخوالي التي يقف فيها الشعراء عند مظاهر الترف والعيش الذي كان عليه الناس في الحواضر.

رابعا: الحث على الجهاد ومحاربة الجيوش الغازية لاستعادة المجد والتاريخ الضائع.

خامسا: إطلاق صرخات الاستغاثة للمسلمين لنصرة الدين واسترجاع الحواضر الإسلامية من المشركين.